قسطاس الآثيريتة

في

حكمة بطل الأمة المصرية

بقلم

عبد اللطيف السحرتي

أحد علماء الازهر

(حقوق الطبع محفوظة)

الطبعة الاولى

في اكتوبر سنة ١٩٢٨ ميلادية

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

الى الحكمة « ذاتها » أرفع كتابي

فلي من ترحيبها بالحكماء مايشجعني على نشر هذا السفر الخالد

وإليك أيها الوالد الحكيم

لعلمي أنك أنهضتني بحكمتك إلي هذا الكمال الذاتي فتقبل هذه السوانح الفلسفية ،، فأنها تناولت حياة خالدة هي نفر التاريخ ولدكم

عبد اللطيف احمد زيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما برحت البشرية منذ كانت أولية هذا الكون اطود هامة تراوح على جنباتها حجرات الليل والنهار فلم تزعزع من اركانها ، ولم ترج ثابت آساسها ، ولقد تناوبتها ، مع ما لها من سمو وشموخ عواصف يتلو بعضها البعض ومع ذلك التناوب الدائم فأنها احتفظت بعالها في خلد الدهر من قداسة وعظمة بالغة

كانت وراء أستار الغيب في مهد أدلال ومساجلة فاهي الا ان تمخض الغيب عن ميلادها ، ، في ريطة الجلال وأبراد الفخامة ، فغدت مهبط

الاعجاب والدهشة »

وفيما تذكر العهود الاولى التي نهضت البشرية فيها ويفخر معها جلالها تذكر من تاريخها ما اشبه يلهب فتنتك فالمظلة المائلة في أثيرها ، الشاوية في صحيرتها ، الخيمة على جبلها ، المرفرفة في عليائها ، الذاهبة مع الريح في اجواز فضاء التقديس اللانهائي

وفي ذلك الثوى الخيالي ، مثوى الفكر الحرة الخالصة الصريحة ألقت البشرية منذ أولية هذا الوجود عصاها بين « مختلف الفكر » فلم يتألب عليها طغيان الاهواء ليقذف بها الى غياية النسيان ، لان الاقدار الكونية ، أو قل الطبيعة ان شئت ، شاءت ان ترفع بالبشرية « في كل مستوى ومستراد » فذهبت بها حتى في فضاء الاذهان الى حيث تجلها العقيدة ويقدسها الضمير »

وفيما يدور به الفلك مظهر جلال البشرية ، عرضها ، فألبستها ، مع هذا الجلال ، نفوس حكيمة شمساء ، ما ان اخرقت في تقديسها فما لها من عظمة ورواء لما للدهر من بلاغ في مقتضياتها ، وحكمة في نبرتها

تلك النفوس الصداحة كانت مرجع فيوض الحكمة ، والفلسفة ، والبطولة ، فذهب التاريخ في نعت ذويها بالحكماء ، والفلاسفة ، والابطال

ولقد شاءت الاقدار الكونيه ان تكون البشريه « مظهرا جامعا » ، ولكنها ارتأت ان تفيض فيوضها على النفوس سجلا سجلا ، على قدر الاستعدادات ، كأنما لتظهر للعالم قصوره عن احتمال سيبها الهامع وكأنما ليستجلي الكون في مظاهر البشرية روح الزمن وأثيره

ومن هنا لا تستطلع ، في التاريخ الغابر ، الا طليعة واحدة من طلائع فيوض البشرية الفضليه

تتفق مع الزمن ، فهي مقياسه ، وهي مساره ،

اما وقد استجلت الاكوان جماع تلك الفيوض في نفس بشرية واحدة ، فهناهنا مثار الدهشة والفتنة وهناهنا يستلفتك افتتانك ، الي افتتان الطبيعة ، فتفتدي منتداك منها فلا يسكاد رجع صداها الموسيقي الفاتن يأخذ مكانه من مرضع اللذة فيك ، الا وقد وجدت في كينونتك هزة بالغة ، لا أذهب في نعتها اكثر من هذا ، فهي هزة تحس انت بها ، وتستطلع في نغمة الطبيعة مأتاها ، ولكنك ، على الرغم من احساسك واستطلاعك ، لا تكتنه حقيقتها فهي فوق ما يتدفق في شغاف قلبك من الغبطة وفوق ما ينساب في جدول فؤادك من صيب الجذل ،

ولقد يمتد شعاع حدقتيك ، الى افتتان الطبيعة ؛ فاذا هو محسور في رواثها وبهجتها ، واذا انت — وبنفسك تيار الدهشة — تستحث ماضي ذهنك الي

حيث تفكر ولكنك لن تفكر ، في دهشتك ،
فأنت في شغل عن نفسك

ففيم تفكر أذن

تفكر في ان تفكيرك ينتهي بك الى حيث لا تفكر

ومهما صوبت سهام ذهنيتك النافذة ، الى مأتي هذه الدهشة البالغة ، لتتعرفه ، فلست الا شاعرا بعقولة ذهنيتك عن متناولها ،

فالتمس في هذا السفر ، باعث دهشتك . من حيث لا تقعدك خطارة التفكير فيه . عن تلمسه . فأنما اردت ان اتحدث الي العالم عن باعث دهشته . ولقد ترفعت بالبشرية . فتناولت ببحوثي أجل مظاهرها ، في شخصية هائلة ، هي بعد السبر والاكتناه . أخصب مغارس النعوت العالية . وأنبت منابتها وهمت حول حمى فلسفة تلك الشخصية . وحكمتها . وبطولتها .

من حيث ان هذه النعوت العالية تترامي على اعتاب العمل الخالد . ويلصقها التاريخ بالعاملين .

وما تطاولت يراعتي الي الخيال السقيم . ولا الي الفكرة الوهميه . فألبستهما لبوسا أخاذا لينفقا في عكاظ الاذهان . او ليتلمسا فضفاض الوجدان . أو لأكون قد هاجمت الفكرة الانسانية ، بارزع النعوت وأجلها دون ان ينم ذلك عن ، ماهية خارجية ،

بل أحس قلبي . بجلال بشرية تلك الشخصية . فأملي . واستشم يراعي . عبير قداستها . فكتب . وفي نبرات هذا الاملاء . وعلى صفحة هالة هذا السفر . ناصع الحقيقة وخالصها . دون ان يوقمها ملحن العاطفة على نبرات الحب او الرضى . فهي حقيقة في ذاتها . تناولها القلم على انها خالصة . حرة لاشوب فيها ولا مزاج

وسوف اجدك في كل مقطع من مقاطع هذا

السفر عندما يأخذك الاعجاب بعبقرية تلك الشخصية
مرددا تلك الكلمة الخالدة . كلمة نابليون الاول حينما
صافح (جيتا) شاعر الالمان .

عبد اللطيف احمد نديم

obeikandl.com

البحوث

١

فيما سجل التاريخ من فلسفة ، أبيقور اليوناني ، ناموس تهذيبي تدور حول مركزه دائرة المواهب الكونية

أرتأى أبيقور ان مركز السعادة البشرية والاعتدال ، فأي اعتدال هذا الذي تناط به السعادة وأي اساس هذا الذي يؤيد الكون ، على هامته ، صرح هناءته

ألا انما هو الاعتدال بمعناه الشامل

ولئن أخذتك الريبة في هذا الرأي الفلسفي ، فارجع الى مبدأ أبيقور الذي ابتنى على قاعدته فلسفته ، تجد انه استجلى في الشعور البشري ، موضوع الحياة ، أو قل كما يقول اهل القانون ، شكلها ، فهذا الشعور

يريك ، صوره نفسك ، فيما يتناولك من نتائج الجهاد
أو لست تنشيط ، وتتيمن ، وتتفاءل

هذا ضرب من نتائج الحوادث يأخذ اشكالا مختلفة ، تحس بها في نفسك ، ولا تكاد تقيسها بغير مقياس الشعور ، بل لا تكاد تجد لها مقياسا غيره ،

فالشعور دون سواه مرآة نفسك المجلوة تعكس لك شبح ما يستقر في وجدانك ، دون ادنى تحوير او تحويل .

وبهذا الشعور ، استجلى أبيقور سعادة نفسه ، في الاعتدال فاستوسقت له الوان النعماء النفسانية ، ففاس السعادة الكلية . على السعادة الجزئية ، وأجدك تقر هذا القياس ، فماهية الجزء ، دون شك ، مظهر من مظاهر الكل . ثم جاهر أبيقور في الناس ، بعد هذا القياس ، ان السعادة ، في الاعتدل ، فلنبحث في رأيه هذا لنخرج من عماية التقليد والاحتذاء

لقد كان أبيقور في عصر مظلم، كان يجاهر بفلسفته في جو مرير بالارجاء، مستهم النواحي، فلا بدع، والعقل البشري حينئذ تحت سلطان النفس؛ ان يكون الاعتدال النفسي أساس السعادة الكونية

اما وقد استرد العقل البشري قوته، وتضاءل بسطوته طغيان النفس، فلماذا نأخذ أخذ أبيقور، ولماذا نجاهر، كما جاهر من قبل، بان اعتدال النفس أساس السعادة،

نجاهر بذلك ولا نخشى ان يتقلص، التقليد الاعمى، علينا لان البشرية مازالت هي هي، وتغير صورة شعورها، ولا صورة احساسها، وهذا شعور وهذا الاحساس، يريانا كما أري ابيقور من قبل، ان الاعتدال مسالك السعادة وقوامها

فلنسلم للشعور كشفه عن هذه الحقيقة الماثلة

وإذ قد تلمسنا الحقيقة فوجدناها تحت متناول

شعورنا واحساسنا ، فلماذا لا نجاهر برأى آخر نبتغى عليه سعادة اشمل ، بكل معنى الشمول ، للعالم المتحضر

لماذا لا نقول ، ان الاعتدال يجتذب السعادة ، ولكن برعاية العقل ، وتحت سيطرته .

نقول ذلك غير هادمين لرأى أبيقور فأننا نقر على ما فيه من حق وصواب ، بينما ندعمه ، بعد كشف الفوتومتر النفسانى بعد كشف الشعور وسبره بحكم العقل ان ذلك الاعتدال في حدوده ، لم تتغلب عليه العاطفة فأفرغته في قالب آخر

وهل للعواطف غلبة ونفوذ

أجل ،

فهذا ما لا مجال للجدل فيه ، فأن العواطف مصبوبة في هيكل البشرية من مظاهر الجمال ، والجلال الالهي فلها الغلبة على النفس ، وان اعتدلت ، دون ان تجمعهما حومة نضال

واذ قد كشف الشعور عن هذا الاساس ودعمه بدعامة العقل فالاعتدال في ذاته يحمي للبشرية جمالها ويصب عليها شآبيب روح الله ، حتى يزخر في هيكلها دم الحياة

واذا كان الشعور حادا بالغا كشف عن اعتدال اطول باعا في الاسعاد البشري

فأين هذا الشعور الحاد

وفي اى نفس يستقر هذا الاعتدال

لقد كشف الشعور الحاد ، وأعني به الان شعور السكون اجمع ، عن هذا الاعتدال

في نفس بشرية مصرية

لا تأخذك أخذة نشوة ان كنت مصريا ، ولا

اخذة دهشة ان كنت غيره ، وسل العالم في ثبات
، لمن تلك النفس الشماء ،
تجد في مجاهرة العالم بأجابتك ، جوابا أيجابيا
لاعتقادك ، يتحد مع حكم عقلك ووجدانك
تجد ان تلك النفس الشماء ، بكل مافى هذا النعت
من فخامة ، لذلك الحكيم المصرى نائب مصر العام

(محمد طاهر باشا فوزى)

أي طاهر باشا ،
أسائلك ، قبل ان اسائل العالم عن اجماعه لك ،
هل تنزلت من عليائك الى هذه الفلسفة . فجعلت
ناموسها شعارك .
وأين منك هذا الناموس . وكلك مظهر الفلسفة
الكونيه . اعني الفلسفة العملية المقدسة . اعني فلسفة
الصمت الذى هو أعمق أثرا فى الحياة من جلجلة

الخطايين ، أعني فلسفة الروح القدسة ، والكينونة الهائلة ،

واو ، هل استهالك الطبع البشرى الي احتذاء هذا الرأي الفلسفى ،

« لا هذا ولا ذاك »

لا تنزلت من عليائك ، ولا استهالك الطبيعم البشرى ،

وكأنما توارد الى خاطر العالم هذا الرأى الفلسفى فجعل فيه أساس اعترافه لك ، بل أساس اجماعه على اعتدالك ،

وكأنما كانت روحك لارواح الحكماء والابطال اقرب الاشياء شبها ، بالاثير ، الذي يرى « فيثاغورس » انه روح الوجود ، ومنشأ الارواح الجزئية ،

« واو ، كأنما روحك أثير أرواح الفلاسفة ، والابطال ، بالمعني الذي يراه ، أورفيه ،

ولئن عدت الى معنى الاثير عند العلماء المحدثين فأن في وسعي ان افرض ، بين روحك وارواح الحكماء ، سيالا أثيريا لا أعلل به ظواهر حكمتهم ، كما يفرض العلماء المحدثون ، أثيرا جسويا يعللون به الظواهر الضوئية

وايا ما ذهبت ، فيما بين روحك وارواحهم ، فكل بعيد غوره يستطيع ان يقول ، انهم استمدوا حكمتهم من حكمة روحك ،

فأن المظاهر الكونية العالية كانت منذ خلق الكون ، في خلد الدهر وقراره ،

فمظاهرك أزلية من غير شك ، هي رسول الفلسفة الى الفلاسفة ، والبطولة الى الابطال .

فلماذا أفرض جدلا ، او على وجه التسامح ، كما يقول علماء الشريعة تنزلك من عليائك الى الاخذ بناموس الاعتدال ، أو ذهاب الطبع البشري بك الى

حيث تأخذ بفكرة الغير

اللهم الا على سبيل قلب الحقائق ،

ولاسائل العالم . فقد آن لي ان اناقشه في غير ما هو ادة، ولكنني سرعان ما ارجع عن هذا الخطل . فمن ذا يستطيع ان يهدم مثل هذا الاجماع

ولكنها النفس تسترسل مع أهواء الفطرة وميولها ، فتري كل شيء ، مهما حالت دونه الحوائل في دائرة الجواز والامكان ، مجاراة لهوى الفطرة التي فطر الناس عليها ، ولو استتبع ذلك الهوى تمرد الفكرة وطغيانها .

ولكنه لا مندوحة لى من مجاراة هذا الطبع الفكري ، فلا أبحث مع العالم عن أجماعه، لا كون قد وطنت نفسي على البحث ، فبحثت ، وعلى الاستقصاء ، فاستقصيت ؛ ولا قذف بشعاع بصري الي منحى من المناحي النائية ، ولو كان منحى خياليا ،

لا كون قد باعدت بين الذهن ، وبين ما يرهبه من هيكل هذا الاجماع ،

والآن ،

وفى حلبة السباق ،

وقد امتدت بينى وبين الفكرة العالمية ، مسافة الخلاف ، واشتط بى الامر ، فاغرقت في البحث والحوار

كانى ارجع ، فى شيء من أرضاء الضمير ، الى نفسي ، لانقب وحدي ، في هدوء وأناة ، ولا عن مأتى هذا الاجماع ، فهو الاعتدال المشهود فيك ، ولكن ، عن سر اجماع الكثرة على هذا الاجماع ، فأجدني كانى هاجمت التاريخ العالمي لانقب فيه عن أطوار البشرية ، ولا رى ، كيف انها لم تأخذ نصيبها من التقدير ، **الا بظهورك** ، بعد ان طالت عليها العصور وبلغت اقصى العمر فاذا التاريخ العالمى يسر لى

الحوادث سردا . ويستعرض لي اشباح أبطاله . وفلاسفته . شبحا شبحا . وكلما توهمت اعتدال البشرية في احد هذه الاشباح . تراجعت . في استحياء . عما هممت به . لما يحدثني به التاريخ من عاب تلك الاشباح وعوارها .

واذا بي . وقد تلوت في التاريخ العالمي ولم استعرض مثالا للبشرية المعتدلة « خير مثالك يا باشا » اشعر من كل نفسي بسر الاجماع على هذا الاجماع .

اما وقد اجمع العالم على اعتدالك . واستجليت سر ذلك في شيء هذا الاعتدال . وكيف انه الشعر النفساني الشرود الذي اكتنزت فيه البشرية أجل كنوزها وذخائرها

غريب جدا ما اشعر به

أشعر كأن الاعتدال يرفرف في علياء المعاني وكأنما اجده او أكاد اجده يبعثني على ان انتحل له

منها ما ليس في وسع القدرة الانسانية ان تتحمله

وعسى أدهش له في نفسي اني كلما استعرضت فكرة لاداء مؤداه . ترفع القلم به عنها . كأن به عزوفا عن الاجحاف بالحق المنوى

فأن لم يكن بد من المناسبة الذاتية بين اللفظ ومعناه « كما يقول العلماء » فتحقيق ذلك فيما نحن فيه امر ليس اليه من سبيل . فأحرى بنا ان نفترض التناسب او نتوهمه بين هذا اللفظ الجامع بين مؤداه الذى يؤوده ان يؤديه . ومهما يكن من شيء فلنفرض ذلك او نتوهمه لا يذهب بنا الى تقريب هذا المشمول فلنفترض ما شئنا مما يجتذبنا الى جمع هذا الشتات وتذليل هذه الصعوبة . وتقريب أمد هذا البعد . فأننا بلا شك . وفي كثير من الاضطرار . سنحيد بهذا اللفظ عن ذاتياته . وسننظر فيه من حيث هو لا في مادته . ولا في هيئته ولكن من حيث هو مرسوم

في أذهاننا ، متخيل في ذاكرتنا

فالاعتدال الذى يحمي للبشرية جمالها ، ونضارتها أكبر من ان نعبر عنه كما نعبر عن ، اجماليات الحياة ، وان كنا لا نرمى به الي ذهنيتنا الا من حيث هو جملى لا نكتنه حقيقته ، ولا نسبر غوره . فهو لهذا لا يكفى في حله إلماع ولا اقناع . فلنجعله مجالا لارتياد القلم ، ولنذهب في حله ، المذهب المنطقى ، مذهب التمحيص والتحليل حتى نؤدي ذلك الحق الذى احتملنا تبعة أدائه ، غير عابئين بمدود اللفظ واسواره ،

« والخيرا »

فنبتدل الناس في تحديد ماهية الاعتدال ، فمليه دون سواه ، ابتنت الجهود أساس تقديرها ، وبه لا بغيره كانت الحيلولة بين المجدين . الصميم . والاسمى ، والفيصولة بين الحياتين . الحقة . والتي هي بالموت أشبه ، (أتيلا) ملك الهونيين استطاع بالاعتدال فى

سياسته ان يخضع القبائل الهونية

فحسب .

أننا سنرجع بك . أيها القاريء الكريم . الي عهد غابر لتتعرف هذا الاعتدال السياسي . الذي هو في الحقيقة ضرب من ضروب الدهاء

لقد كان الهونيون يعبدون السيف . ويرون له التقديس البالغ حد تقديس الآلهة . وشيء من وحي الدهاء . جاهر أتيلا أنه وجد سيفا ألهيا . فخضعت له رقابهم وسيرهم في مراميه . وقلب بنفوذه فيهم . وانصياعهم له . مملكتي الرومان رأسا على عقب

ولهذا الدهاء السياسي . الذي يرجع رجوعا ذاتيا الي الاعتدال السياسي . سرجع الفضل ليس إلا

أفلا يحق لنا بعد هذا ان نقول . ان ماهية الاعتدال فوق مزايا الالتفاظ . وان نتظاهر بالشذوذ على تلك الفكرة التناسبية . وان نأخذ الخذ الرومانتيكيين

في الثائرة على الكلاسيكيين ، فنثور ، ولو في فتور على هذا الرأي التناسي لنخرج بماهية هذا اللفظ عن دائرتي المنطوق والمفهوم

يضطرنا الى هذا نحو ذلك المنحى السياسي الذي هو بالقاريء ، مما ليس في وسع اللفظ ، ان لاحظنا التناسب ، ان يحتمله على غاربه ، ولا في جهده ان يؤديه بالامانة التي تناط بالتحمل على اي حال كان

ولقد آن لي ، وكأن قد وجب علي ، ان اصارحك القول ياباشا ، وان اقول ان اعتدالك هذا الذي انعقد لك الاجماع العالمي عليه ، يضطرني تحديده ، الى شيء من مهاجمة العقل البشري بما لم يشهد التاريخ تدفقه من قبل ، في مجاهل الاذهان ، بتقرير تلك الحقيقة الهائلة الناطقة بان ما دخل تحت دائرتي الاعجاب والتقدير من الامتيازات البشرية يندرج في اعتدالك أولا وبالذات .

فشمول اعتدالك يا باشا للمواهب الكونية من العموم الذي لم يتطرق اليه السلب

البست تشهد ذلك في نفسك يا باشا

تشهد ذلك ، ولكنك تحيد بشهودك هذا عن الانانية وافانينها

والذي أراه في تقريب الاعتدال، ان الانسان في اجتياز هذه الدار ، تحت تجاذب الرغبة أو الرهبة لا يسعه إلا أن يحتمل الحياة راضيا او مكرها، ولكنه مع هذا الرضاء او ذلك القسر ، يصدر في كل اطواره عن ارشاد الضمير ، ومع تحكيم العقل ؛ وربما ساور ميله او انبعاثه ؛ عبء التكاليف فتمخض لا عن شيء ، فهو تحت تجاذب الميل، وقهر الفرق والخوف ، أسير مسترق ، مسلوب الارادة في الواقع ، وان كان يمتلك الشعور الذي هو وسيط التمييز بين ما يصدر عن الميل ، وما يصدر بحكم الطواري ،

فمن اين له الاعتدال اذن

والاعتدال ما هو الا التوسط بين ضعف وقوة

من اين له الاعتدال اذن

وهو لا يستطيع اكثر من الصدور عن ارشاد النفس ، دون ان يلحظ في هذا الصدور ضعفا او قوة

ولكن الاقدار التي فطرت البشرية على الايجاب والسلب ، على التجاذب الى الشيء يباعث الرغبة ، وعلى النفور منه بحكم الرهبة ، لم يذهب به الابداع في تكوين هذا الكيان البشري . عن صب صبيب القوة ، في جزئي من جزئيات هذا العالم الكلي ، ليشهد العالم الكلي ان هذا الجزئي ما استوى على سوقه الا ليكون شاهدا أجلى على قدرة السماء

وفي هذا الجزئي ابداع كثير

تناسب في القوى الوجدانية من ناحية ، ومن اخري صبيب قوة السماء ، حتي انه ليستطيع بفضل

ذلك ، ان يتحكم في ميول النفس ، وان يرهب اشباع الرهبة التي تصدر عنها الافعال لما

في هذا الجزئي وحده تستطيع ان تمثل الاعتدال بين ضعف النفس وقوتها

تستطيع ان تمثل الاعتدال ، البشري الذي اتحدث اليك عنه والذي ترى انت ، فيما سبق ، اجماع العالم على شهوده في البشرية المصرية ، بشرية الحكيم المصري طاهر باشا ،

تستطيع ، وبالاستنتاج المنطقي تستطيع ، ان تعرف من هو ذلك الجزئي الذي استوى على سوقه فكان شاهدا أجلى على قدرة السماء ،

٢

اسلفنا ان الاعتدال مركز الامتياز البشري أسلفنا ذلك بعد ان كشف الشعور عن هذه الحقيقة واني لاستحثك على الطلب بهذا الشعور لتشهد حقيقة أخرى ، تقرها من كل وجداناك ، ولكنك في هذا الاقرار على شيء من الاحتذاء والمتابعة ، على احتذاء ألهام الضمير ، ومتابعة وحي العقيدة

هذه الحقيقة التي استحثك على الطلب بشعورك لتشهدها هي ، ان الحق فوق كل شيء ، وما برح حب الحق ولن يبرح « كشاف النفوس » فاذا رفرفت روح الحق على أبهاء النفس ، وأرجائها ، فقل بعمل ، فيلك ، أنها نفس شماء ، وألا ، فأنك على يقينك بضدها . لا تتحاجل عن تناولها بما يصمها ويعيبها ، لا تتنكب

عن تناولها بالافك ، وقذفها قذفات الهزؤ والاستهتار لا حظا في كل ذلك ، انك تصم نفسا هي أخلق شيء بالصوان .

فالتقدير وسواه يرجع أذن الى ذخيرة الطبيعة في قلب الرجل ، الى حب الحق والمذهب عليه ، الى الفطرة الاولى ، والغريزة الصادقة

وكيف يلابس الحق — وهو روح الحياة — نفسا هينة على الطبيعة ، لم تختصها الطبيعة من ذخيرة المواهب الكونية ، بسوى انفاس تتصاعد في ثنايا الرئة الى امد محدود

حاشا ان يلابس الحق — وهو منة الطبيعة العالية ، نفسا هي أرجوحة من اراجيح الاهواء ، الا اذا تجرد من صيغته . فأنه لا بأس ، وهو في هذا التجريد والسلب ، ان يكون شيمة المتساهلين الافي ، وتاج المحدودين الوسني ، ولا مشاحة اذن في اصطلاح العامة

ان جعلوه مع هذا السلب مركز الفضيلة او قدسوا رواده الي حد تقديس ذوى الحق الخالص

واذن فلتقم قيامة الحق على الباطل . فانها لعمرى . لن تكون قيامة ، لن تكون هيجاء يقذف فيها الانصاف بالحق على الباطل فيدمغه لن تكون سوى صيحة سدت دونها آذان اولئك الذين ملؤا الاسماء على حقائقها . ولم يرجع بهم تقدم الزمن عن هذا الاعتداء الفاحش . والغلو البذيء .

ولئن خشيت على شيء في تلك الآونة التي تشهد فيها المراك بين الايجاب والسلب . بين الحق والباطل

، فعلى نفسك ليس الا ،

ولن تمد يدك الا لتأخذ حيطتك لقلبك . خشية ان يصيب شرر هذا المراك مكمن الشعور والحس فيك ، وهو الحقيقة التي لا تشك انت فيها

ولا تريد ان تتحامل عليها شكوك الناس ، تعطف على حقيقتك قبل كل شيء ، وتجاهد بجوار حسك في ذب رائش هذه السهام عنها ، وأماطة تحامل هذا الطغيان عن حريمها ، وتري انك ان لم تذد عن حوضك فقد اصبح الحق الذي فيك ـ شعورك واحساسك ـ هدفا لهذه الرماية ، وغرضا من اغراض هذا الاجحاف وتشعر من كل نفسك ان مقاومة هذا الاجحاف عنيفة تحتاج الي مدد خارجي ، الى مدد الطبيعة ، الى انهاضها ، الي المصابرة قبل كل ذلك

فبماذا تقاوم اذن هذه الهاجمة ، وانت واجد على فكرة عامة لا تبغي ان تتغلب عليها ، ولست من الطموح الى حيث تتخيل هذا الخيال ، وان كان من اخيلة الجهاد ، بعدد الطبيعة ليس الا ،

ولكنك لن تستمدها لتأخذ بيدك الى ساحة

الخلاص من مستلك هذه الهاجسة ، لانك مدى بطابعك ، تواد الناس وتواتهم ، فلست في هذا الاستعداد تبقي اكثر من ان تستلبك الطبيعة هذا الشعور الذي يعضك ، ويرمضك ، ويثير منك حقدك على الفكرة العامة ، فكرة التجريد ، فكرة الغلو في الرضي بالاسماء

والطبيعة لن تسارع الا في هواك ، لانها على قدر أفعال أرضك او خصبها ، تسلبك كما توجبك.

وأذا استلبتك الطبيعة هذا الشعور الذي يبعث فيك الفرق على حقيقتك ، على شعورك واحساسك ، فقد افتقدت كل شيء في الوجود ، وكنت من اغفال الاحياء لك الي حيث تشعر أنك بين جنادل الاجداث وصخورها

فاعلم — علمت الحكمة — ان الحق في هذه

الحياة مناوأ ، لا هو بالملابس النفوس ، ولا هو بالمسلوب عنها ، الناس يدلون منه باسمه المجرد ، وهو في عليائه يترفع عن الغواء في أفنية هذا التجريد

فأين أذن تتطلب الحق الخالص ؟ ان كنت تريد ان يكون من نحيزتك الابقاء عليه ،

كانك ، وقد رأيت الحياة على خيرها وشرها ليست في شيء من الحق ، تسلب الحق حقيقته ، وتري انه لابد وأن يكون في مسيل جارف الاهواء قد تبدد شعاره ، او ان تكون المظمئة قد أخذت سبيلها اليه ، فهو يأبى ان يلابس البشرية بعد ما لاحته ،

وكانك في تطلابك الحق من عليائه ، تثور على عالم السديم والفوضى ، مناديا فيه ، ها قد آن لك بعد طول سهودك ان تفيق لتعرف انك افتقدت نفسك في فضفاض التجريد من حيث لا تدري ولا

تشعر ؟

وربما ساورك في بيداء هذا التطلاب ضرب من ضروب الونى والفتور ، فعدت من حيث ابتدأت ، شاعرا فى نفسك انك من الضعف الي النهاية التي تقعدك عن التنقيب

ولكني لن ادعك يؤودك البحث ، او يرجع بك الونى عن قصاراه

التمس فى البشريه غايتك .

فان كانت من الاعتدال على جانب وفير ، فان الحق شيمتها الاولى وميزتها الخاصة

وأجدك تشاهد فيما سبق الاجماع العالمى على أعتدال البشرية المصرية بشرية الحكيم المصرى طاهر باشا ، ففى بشريته المعتدلة تعرف للحق حقيقته وتعترف ، مع ما بك من نشوة الواصل الى النهاية بعد طول جهاد ، بتمايز النفوس الجزئية وتشهد للبشرية

المتدلية مظهرها الملابس التي كانت ذاكرتك تنطوي على عفائه بين قبة الزرقاء وبساط الغبراء

ولئن سألك الناس يا باشا ، وانت دون سواك الذي تواجه بهذا السؤال ، لماذا كان حب الحق ميزتك الخاصة ، ولماذا لم تسر مع الاهواء في مشعب التقلب على هذا الامتياز ،

فأنك لن تواجه سائليك بأقناعياتك البيانية ، وان كانت منهلا من مناهل الحق ، ولكنك لحكمتك العملية البالغة ستواجههم بمنحى من مناحي حنكتك العملي ، ليشهدوا في روعته ان الحق احق ان يكون ميزتك الخاصة ،

وقد ترى يا باشا في روعة شخصيتك ما أنه ليكون فتنة ألباب الناس ، فتخلد الى الحنان على البابهم ، بينما يضرب تفوذك بسور بينها وبين استقصاء صور شموخك ،

ولاسر ما تخلد الى الحنان على الباسم

لانك تبقى الا يكون الناس في شغل ، بتعرف حقيقتك ، عن كل شيء

، ومع هذا ،

فللناس فيك طرائق ، ولكنهم ، رغم تشعب مذاهبهم في حقيقتك ، وتباينهم في محاولة اكتناه ذاتياتك ، يقفون جميعا لدى نهاية واحدة ، لدى أمد واحد ، لدى الاعتراف لحقيقتك انها فوق كل شيء

ولحدبك يا باشا على الخلق لا تدع الناس في هذا التباين الفكري ، يتعرفونك فلا يعرفونك ، بل تظهرهم احيانا — لا أقول دائما فهذا مالا قبل لاحد باحتمال شهوده — على موقف من مواقف حقك الهائلة ، ليتدرجوا ، ان استطاعوا ، من شهود هذا الموقف الى شهود نواحيك ، ولو شهودا أجماليا

فأنت يا باشا مع تخصيص الطبيعة لك بالحق

الخالص تأبى الا ان يتعرف ، الملأ ببعض نواحيه

« فالناس يتعرفون الحق بك وفيك »

« يا هيهم ، مالى ، سحابين على غيرك يا باشا ، ولكنك مع هذا لا تغتر بامتيازك ، بل وتريد الناس على ان يكونوا لك فيه مساهمين

ولئن حاجني بعض الجدليين فى حقية ما أقول فألى ملحظ واحد يستند هذا الحجاج ، الى انه لو كان الحق في توالى النمو ت فلماذا حادت عن سننه اساطين الرجال ، فيما نرى ونرى التاريخ ، ولقد يكاد يكون صدوفهم عنه معبرا للطعن فى انه امتياز

ولكنني أجاهر — وستؤيدني ايها القاريء الكريم ، بأنه لا شبهة في ان الحق امتياز ، فصدوف الناس عنه ليس لعاب ، بين ولا خفي لزومه له ، وانما لما يجدونه من بعد منالة ، فهم يلاحون الحق لانه مركوز فى كيان بشريتهم لا يستطيعون معه ان

ان يكونوا حماة الحق وانصاره

اما ذووا البشرية الخالصة من الجمود ، المطلقة من اسر الهوى وقيوده ، النسلابة على كل شيء ، فالحق مبدأهم ودينهم

ولئن قلت لى ان الظواهر البشرية ، اما ألي الحق مصدرها او الي الباطل ، فأين أذن نقطة التوسط حتي نتراءي الاعتدال فيها .

، فلنأخذ مثلا ، أي ظاهرة نفسانية ، السنا نجدها بباعث الهوى ، او بحكم الطواريء - ثم - اليست غلبة الهوى وصولة الطواريء أبطولة وخدعة ، لدى القوة النافذة ، قوة الاعتدال ، وأذن ، فكل ما عليه أسرى الاهواء ، والمنبهثون بسياط الرهبة ، من أباطيل الحياة وأكاذيبها . او هو الى ذلك اقرب ،، ولقد يكاد يكون الحق ، في نفسه ، أبطولة وخدعة مادام في حوزة الاعتبار ، ليس من الوجود الخارجي

في شيء فالحق الذي نتراءى الاعتدال فيه هو الحق الخارجي الواقعي ، وهو من غير شك نقطة التوسط بين أبطولتين ، بين ما عليه أولئك المنبعثون عن اميال نفوسهم ، او بحكم طوارئهم ، وبين ما هو في رحب الاعتبار والفرض كمين ،

ولارجع اليك يا باشا ، لاقول لك ، شهد الناس حقك الواقعي ، وعرفوا حقيقته الخارجية . وانه لآية اعتدالك . وشاهد امتيازك فانت في كل ظواهرك باعث دهشة العالم . ورسول اعجابه .

٣

الكائن الناطق كلمة سطرتها قدرة السماء في سجل الوجود ، فكل ، يرى انه حي مستقل بذاتيات وجوده ، ثم لا يلبث ان يحس في داخله بتيار القوة الدافعة ، قوة الاحساس والشعور ، فيناجي نفسه ، ان قد عظم خطره في الحياة ، وان قد هديت له من احساسه قوة الاستشفاف لكوامن المجد في قرارة قلب الكون ، واتد حدثه هواجسه ان يساير الآمال فيسمى ، فتناديه الحياة في مشارك هذه الدار

ذلكم مثل الحياة فيما تتراءاه العقلية الساذجة ، ولقد تتكشف الحياة عن معنى أجمل من ان تتمثله بهذه السذاجة ، في هذا الشكل «وان كان من اشكالها» فلماذا نصوغها بوحي هذه السذاجة « في هذا المثل

وحده » وهو فيما بين أشكالها المثالية يترجح في ابعاد ثالثية ، ترجح قطعة الحديد في ابعاد الدائرة الجذابة ، كانما نقر التمايز في الكون « على انه يتناول كل شيء » فأحرى بنا ان نحيد بالحياة عن أخيلة المقلية الساذجة ، وان نتكشفها بجهر التمايز ، وان نقول قولة حكيمة ان شئنا ان نأخذ سبيلا الى تحديد الحياة بحد منطقي

لكل حكائن حياة ، ولقد تساورك الدهشة لقولة هوكر « الكلمة كائن حي فاعلوه » ولكنك في اقرارك حيوية نفسك ، تقر حيوية كل كائن حتى اهتزازات صوتك وتموجاته دون شعور منك بذلك ، بيد انك لا تتمثل في ذاكرتك الا حيوية الكائن الاعلى الكائن الناطق ، الكائن الذي انت هو ، تتمثلها بادي ء ذي بدء في اجتياز الطريق الذي قدر للانسان ان تسعى فيه » دون ان تلحظ في تمثلك هذا « انسكارك لمثل الحياة الاعلى »

ولئن حاولت ان تتعرف للحياة مدى ، فلانك تتمثلها في مثلها الادنى ، واذا انت من وراء هذا التمثل تعاظلك مثلها الاعلى ، تراجعت عن التحديد

والحياة مع هذا ، ومع ما يتدفق في نفسك من خطاراتها . وما اشعرته من بعد منال تحديدها ، تتنزل من عليائها قداستها الى ذاكرتك ، فاذا هي في عوجات صوتك « كلمة » واذا انت تقيسها في « داخلك » « قياسا فاسدا » باجتياز هذه الدار ، وقريبا الى الصحة « بالذكرى الباقية »

ما لنا نذهب بعيدا ، ولماذا لا نميط أستار الشكوك والاوهام المسبلة على أذهاننا ، لنتراءى على صفحتها ، ما انعكس من صورة مثل الحياة الاعلى دون ان يلابسنا شك في التحديد او فساد في التمثل

ألا فلننظر . هل تؤدي التماثيل الا معنى من معاني خلود الحياة . وهل يمثل التاريخ الا بعض أطوار

هذا الخلود

وهل أشعرت نفسك الخلود ، وهل تعرفت الأبدية ، انك لن تحس في داخلك الا بتحنانك الي امتداد ظل هذا الخلود اليك . وفيما انت كذلك تشعر انه لن يمتد اليك وارف هذا الظل إلا اذا تهيأته .

فبماذا .

« بالعمل »

العمل « وارید العمل الخالد » هو الذي ينهضك الى هامة غايتك من خلود حياتك وابديتها ،

أفلا تستحث أمس ماضي عزمك ، لتتفلت من كل قيد يعتلك عن المضي في سبيل الجهاد . ثم ألا تنظر نظرة بعيدة في أجواز فضاء الخلود ، لترى كيف أستنسى العظماء قيمته ، ثم ألا يدفعك تيار تلك القوة المركوزة فيك « قوة شعورك بخطارة الخلود » الي

العمل الخالد

كثيرون يشفقون على انفسهم من اعباء الجهاد فيتنكرون في وجهه ، ويتكبرون عن مشقته . ولما فيهم من غريزة الابقاء على انفسهم يحيدون بها عن كل ما يستتبع اجهادها ، واستنفاد منتها

تخبط منهم أبناؤهم هذا على انفسهم ، واحق بهم ان يتلمسوا الابقاء عليها في الجهاد

وهل الجهاد الا أثر دفع يتمثل في جوانحك الى الغاية القدسية الهائلة المنهضة لك ولمن يليك

هل الجهاد الا أثر قوة السماء في نفسك ، أشربته قوتك لتسمو بك الى سماء غايتك

الجهاد كلمة تردها ، قد لا تشعر بعامل الدفع على تحقيقها ، لانك « بطبعك » ابقى على نفسك ، ولما تشعر به من الخاطرة بها لتحقيق معنى الجهاد ، ترى الابقاء عليها في أطراحه

ونحبب منك هذا بنفسك ، فانك لو علمت ، ان ساعة في معترك العمل أبقى على اسمك من حياة أبيدة في ظل الخمول ، لجاهدت لسجال التاريخ باسمك . واعتزاز الحياة بك

تقرأ صفحات التاريخ فتفاخر بأسلافك ، وأحرى بك الا تكون عظاميا ، فلتتهيج شرعة العصاميين لتكون سلفا لاخلافك في العمل والذكرى

العمل ، وامثالك أشرت بانيا من خطره ، خلقة كونية خلقنا لها ، ولكننا لنربط ما بنا من الاشفاق على انفسنا لا نعمل الا في دائرة محدودة ، هي دائرة حب الذات

فمن هذا يعمل مفكرا ذاته

الحكيم ليس الا

فهو الذي يستطيع العمل المنهض لشعبه ولامته ، غير لاحظ نفسه ، الحكيم هو الذي يستطيع ان

ينظر في ابعاد الحياة النائية ، الي هدف الخلود ، فاذا صوب اليه سهم العمل اصابه

لا يري الحكيم فخر الحياة الى في الجهاد ، فهو في كل أطواره يصدر عن وحيه ، غير عافل باستهلاك مهمته في صوبه ، ولا عابيء باستنفاد قوته في سبيله

وهل لغاية شخصية يعمل الحكيم

تستطيع ان ترى ذلك ، وان لا تراه ، تستطيع ان ترى له الغاية الشخصية التي تكمن وراء استار شهوة النفس وطموحها للخلود ، وان لا ترى له ذلك ، لاحظا في حكمته أنها العول الهادم للشهوة فتراه لهذا أرفع مكانا من العمل في ظل الغاية الشخصية فهو أنما يعمل لانهاض البشر واسعاده

وأيا ماراًيت ، فأنك تجل عمل الحكيم ، لانه يذهب فيه مذهب الاناة والروية ، ينظر « قبل ان يخطو خطوة في عمله » الى أي مدى ينهض الناس عمله

فاذا عمل كان انهاضهم نتيجة عمله المحقق

تجل عمله لهذا ، ولما فطرت انت عليه من تقدير الجهود قد تذهب مذهب الغلو في هذا الاجلال

تذهب هذا الذهب في اكبار جهود الحكماء ، لانهم فخر التاريخ ، فهم الاحياء ، ان تبينتهم بمجهر الحياة ، والابطال ، ان وازنتهم بمقياس الاعمال

الا ان انهاض الحكماء يذهب بالناس توا الى أوج السعادة ، فاذا ضرب الناس بسهمهم فيها ، وتبينو مكانتهم منها فلا شيء أذهب بهم الى محمدة الحكماء ألا ما تبينوه من حقية السعادة في انهاضهم

فلله ما لحكيم الامة المصرية طاهر باشا ، من انهاض تبوأت به الامة مكانها من فردوس السعادة وما هي الا جولة فكر حتى هتف بها صوت الغريزة المدفوعة على تقدير جهود الحكماء أن تسترسل في محمدته الى حيث الاغراق

الا فلنصغ لصوت الغرائز فانها أصدق ، صوت الحق الذي تأخذ البشرية شكله في مواقف الحق ولنصغ لنداء الغريزة حيث كانت مدفوعة على تقدير الجهود ، ثم فلنردد مع التسبيح النشودة هذا التقدير ليكون رجع الصدى شاهدا بصدق هذا لحكيم أمتنا

أي حكيم الأمة ، أي طاهر باشا ، اي رجل العمل المسدد ، أنا لنجد لروعة انهاضك ما انه ليسيطر به لواء مجد النيل ، ويملو به شأو مصر الفتاة

وأذا انت ذهبت ياباشا الى الرضي فيما نحدثك به من جليل هذا لانهاضك ، فارتأيت في سجالنا باك ما قد تسكن اليه شهرتك السيلة ، فأنك بالحكمه الصق في أقصاء هذا الخاطر عنك لانه « ربما » اجتذبك الى الوني في جهادك ، فانت من حنكتك في يقظة تدفعك ابدا الى الجهاد

سجالنا بك ياباشا باعث الرضى ، ولكنك من

حكمتك في اندفاع الى الغاية التي تترسمها عزمتك النافذة ، لا تسكن الي الرضى الا في الغينة التي يسعى فيها سنا سجالنا بك بين يديك ، ثم لا يلبث هذا السكون الى الرضى ان يتلاشى امام قوتك الدافعة بك الى الامام ، فتحدث نفسك انك ابعد نظرا من ان يستوقفك جلال هذا السجال لحظة عن مواصلة الجهاد

أيه ياياشا ، لماذا أنت من عزمتك وحكمتك في سعي دائم الى اشباع نهمة روحك العالية ، وفي أبعاد غايتك تتضاءل منة الجهاد ، ولدى اول درج من مرقاة جهادك يبلغ الجهد ممن يطاولونك ، وينال منهم الاعياء الا انك تشحذ عزيمتك لان تكون اول خطوة تخطوها في انهاض مصر ابعد مدى من اقصى ما وصل اليه المجاهدون قبلك

لئن كان ذلك فحسبك

ام لانك هكذا جبلت على النفاذ الى اعمق اعماق
الفخر في كل امر تحاوله . وأذن فأنت في عملك
مطبوع على النفاذ الى اعمق اعماق الفخر فيه
لئن كان ذلك فحسبك
أم هي روحك العالية، سامتك أن تكون المنهض
لمصر تحق لئن كان ذلك ، فانت مما سامتك روحك
في شغل عن مظاهر مجد مصر لملك وسجال التاريخ
بجهادك

شيء من ذلك يبعث فيك مواصلة الجهاد ؟
فتتريث يا باشا ريثما تقف بنا في حمدنا لك عند حدود
الاعتدال فيه ، فأنك من حكمتك ارفع غاية من ان
تكون أنشودة أطرائنا لجلائل جهودك (مع ما فيها
من روح التقدير البالغ) مالئة لفضاء حياتنا
ولكن مصر ستظل في سجال بك أ آبد من آثار
مجد قدمائها واطود من آفاق سمائها

وانت مع هذا (لشمول اعتدالك للمواهب الكونية) تتطلب غاية اشم من هذا السجال ، واسمى من هذا التقدير ؛ من حيث حقك الخالص ، وحكمتك البالغة ، وعملك المسدد

الا فالتهنأ

فانك بالغها في الخلود ؟

عبد اللطيف الحمدنيم

١٦ اكتوبر سنة ٩٢٨